السلطة قد نمى المدح حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر وحتى أصبح الشعراء يحط من قدرهم ألا يجيدوا المدح والهجاء ، كما نراهم يقولون عن ذى الرمة »[1] .

فنحن هنا أمام موقفين للباحث نفسه إزاء الشعر القديم من حيث استمرار التقاليد الجاهلية فيه من ناحية ، وتأثره بالإسلام من ناحية أخرى ، ولا يخفى ما بين الموقفين كما يبدوان فى النصين السابقين ـ من تنافر وتباعد . ويبدو لى أن مكمن الخطأ هو الذى رأيناه عند غيره من مؤرخي النقاد حين يطبقون على الأدب العربى فى محاولة الموازنة بينه وبين الآداب الأخرى ظروفاً عاشتها تلك الآداب ولم يعشها الأدب العربى بسبب اختلاف ما بين البيئات وتباين المجتمعات ، وبعد ما بين الذوق الأدبى هنا والذوق الأدبى هناك .. ونحن فى هذا لا نعترض على فكرة الموازنة فى ذاتها لأن باب الموازنة مفتوح والنظر فى الظواهر الأدبية على أى نحو من أنحاء البحث العلمى أمر مشروع . . فليس هذا مكمن الخطأ الذى أشرنا إليه ، وإنما ينصب الحكمين عند التطبيق ، فنتوصل إلى أحكام أو تعليل للأحكام من غير مراعاة للحال التى يختص بها أدب غير ما تختص به الآداب الأخرى من أحوال مغايرة . .

هذا إذن ما جعل الباحث يرى أن المسيحية حاربت تقاليد الأدب القديم خلال العصور الوسطى لأنه كان أدباً وثنياً ، وأما الإسلام فلم يحارب تقاليد الأدب الجاهلى لخلوه من آثار الوثنية العربية فيما وصل إلينا منه . والذى يبدو لى فيما يخص الأدب العربى القديم أن الوثنية الجاهلية شىء والتقاليد الشعرية ـ سواء من ناحية الفن الشعرى والصنعة فيه أو من ناحية الموضوعات والأغراض الشعرية شىء آخر . ونحن لا نعنى بذلك أن الشعر الجاهلى قد خلا من تصوير الديانة الوثنية أو التعبير عنها[2] . . والوثنية شىء عرفته

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) راجع فى ذلك (فى الأدب الجاهلى ص ٧١ ـ ٧٣) و (تحت راية القرآن للرافعى) ص ٨١ ـ ٨٦ .